وبناء الطبيعة

بقلم احسان الملائكة

عندي ان دراسة سير كبار الفنانين تجمع بين امرين مهمين لدى الغالبية العظمى من المثقفين وهما : الفائدة والمتعة ، ولو استقصينا سير الفنانين لوجدنا أن طائفة حسنة منهم قد لقيت من الناس افضل التفهم لشخصياتهم وانصف التقييم لمواهبهم ، غير ان طائفة أخرى من الفنانين لم يكتب لها ان تكون مع الناس على مثل ذلك الوفاق المريح ، ومن ثم لم ينتفع بحياة اي منهم على الشكل المطلوب . ولقد عانى بعض اولئك صنوف الاذى ومر الالم اثناء حياتهم ، بل لقوا الدواهي حتى بعد مماتهم ، وفي مقال لي بمجلة الآداب (عدد نيسان ١٩٧٠) تعرضت لطرف من سيرة احدهم وقد ابتلي بتلك المصيبة ، واعني به شاعرنا المبدع العظيم ابا الطيب المتنبي ، ثم ان هناك عبقريات اجنبية عن تراثنا العربي ومن المفيد لعشاق الادب والحقيقة والجمال ان يتعرفوا الى اصحابها او يزدادوا منهم قربا ، لان الفنان في كل صقع من الارض وعلى مدى الآباد والعصور لا يكاد يتذوق طعم الراحة النفسية ، او يفوز بارتواء القلب حتى يلتقي في عوالم الفن الرحيبة وعلى اقصى اطراف الزمان والمكان بالفنانين الآخرين الذين يسيرون على دربه ذاته ، يواصلون ـ مثله ـ التقدم في الطريق الغامض والوعر وغير المطروق . وهم لا يستنيرون الا برؤاهم المجنحة البعيدة التي تحولها البشرية بعدهم الى حقائق راسخة بهية ، وواقع صلب مشرق .

ولعل في هذا تفسيرا مقبولا لاختيار (تيرنر) موضوعا لبحث اليوم (*) .

(المترجمة)

ويليام تيرنر الرسام الانجليزي المعروف بقدراته الابداعية الخلاّقة في تصوير مشاهد الطبيعة ، شخصية فنية غريبة طالما اثارت اشد الجدال وأعلى الضجيج ، لما يلف سيرة صاحبها من غموض وابهام ناجمين عن الحواجز المنيعة التي كان يضعها عامدا في طريق الباحثين عن احوال اسرته وحقيقة نشأته وظروف حياته .

ولد عام ١٧٧٥ م وتميزت حياته بالحركة الدائبة والنشاط المدهش اذ ما كاد يبلغ السنة العاشرة من عمره حتى صار فنانا محترفا . وعند الخامسة عشرة كان قد تتلمذ على سبعة من كبار اساتذة الفن ، وأدخلت لوحاته في معروضات الاكاديمية الملكية . اما في العشرين فقد امسى فنانا شهيرا . وكان الى جانب ذلك كثير السفر دائم الترحال لا يثنيه عن ذلك صحو او مطر . فهو يتجول في ارجاء بريطانيا قاطعا خمسة وعشرين ميلا في اليوم الواحد على قدميه ، تدفعه نزعة حادة الى اجتلاء وجه الارض والبحر والسماء ، وتأمل الانهار المنسابة والسحب المستنيرة والمنحدرات المخضرّة ومرافىء حالات الغروب واضطراب الامواج . ثم يطيل التفكير في سر انبثاق الحياة ثم ازدهارها ومصيرها بعد ذلك الى الفناء والتحلل . ويحوّل كل ذلك الى فرائد masterpieces تبدعها يد صناع ماهرة وتعينه على انتاجها بنية قوية وجهاز عصبي فذّ ، وقابلية نادرة على الكد والعمل ومقدرة فائقة على الاستفادة من الخبرات المتجددة ، وتحمل خارق للمشاق والمصاعب ، وأخيرا معرفة عميقة بأسرار الجمال في الطبيعة يكاد يذكرنا بفهم مايكيل انجيلو Michael Angelo لخفايا تركيب هيكل الانسان .

لقد تفوق تيرنر على جميع الرسامين حتى روبنز Rubens في حجم الانتاج الذي انجزه طول حياته ، بمفرده وبدون ان يستعين بتلميذ او مساعد ، اذ ترك بعد وفاته الفي لوحة كاملة وتسعة عشر الف رسم وتخطيط من المستوى الممتاز ، علاوة على ثروة تقدّر بمائة واربعين الف باون ! ولو اجرينا مقارنة سريعة بين مناظره ومناظر الهولنديين او حتى الانطباعيين الفرنسيين لظهر البون شاسعا بين رسامين ينظرون الى الطبيعة من كوّة ضيقة ، ورسام فرد يدرس

(*) هذا المقال مترجم عن كتاب :
Men of Art BY Thomas Craven Halcyon House - New York

تركيب الكون ثم يصور الدراما العالمية بأكملها .

غير ان هذه المواهب الفذّة ، كان يقابلها لدى هذا الفنان الكبير طباع شاذة حيرت المعجبين بفنه ولبثت تثير التساؤل بين زملائه وأصدقائه . وكان اول ما اثار دهشة الناس شدة تحفظه في التحدث عن بيته وأهله واصراره على كتمان كل ما يمكن ان يلقي اي ضوء على ظروف حياته الخاصة ، اذ لم يشاهده انسان واحد وهو يقوم برسم صوره ، ولا استطاع احد من الناس ان يزعم انه زاره في منزله . وظل الجميع في تساؤلهم وحيرتهم ، حتى كانت المرحلة الاخيرة من حياته حين دهمته آلام الشيخوخة وشرع المعجبون بفنه يبحثون عن مثواه ليعودوه في علته . وما كان أعجب الحقيقة عند تجليها ! وأي تناقض بين الجمال والقبح ؟! لقد ظهر ان الجمال المذهل في لوحات تيرنر لم يكن يقابله في حياته الشخصية الا اشد القبح وأقصى البشاعة . ولقد كان هؤلاء المعجبون على أتم استعداد للذود عنه لو كان رجلا معدما فقيرا ، اما وهو ذلك المالك لثروة طائلة جمعت منذ الشباب ولم ينتفع بها احد ، فأي عذر يمكن ان تبرر به قناعته بالعيش الخسيس وسط الطبقات المنحطة والاحياء الموبوءة ؟

على ان ذلك كله لم يؤثر في قابلياته ، فقد ظلت معارفه تتراكم ومعلوماته تتنوع . وحلق خياله بعيدا حتى حطمت رؤاه الحدود الارضية وراح يسمو فوق دنيا الواقع متوجها نحو الشمس في علاها ورفعتها . لقد كان تيرنر مستسلما منصاعا لاوامر الفن ، غافلا عن وجوده الانساني ، قاطعا كل صلة له بالمجتمع وأعرافه ، متخذا من الشراسة وحدة المزاج درعا يقيه فضول المتطفلين ونزوة الاجتماعيين! وكان يقول لنفسه : ان المثقفين يهمهم ان يجدوا الجمال في صوره، ولا دخل لهم بظروف حياته الخاصة ، ويجد في هذا التبرير عزاء وسلوانا .

والحق ان تيرنر عانى من مشاعر الذل والهوان الشيء الكثير بسبب ظروف نشأته وأحوال اهله . فلقد كانت امه ـ التي لم يشر اليها بحرف واحد مدى حياته ـ امرأة مسترجلة كثيرة الشر مختلة الاتزان. وحين أراحها الموت من الدنيا او اراح الدنيا منها ، لم يشأ احد ان يظهر الحزن عليها . اما ابوه فهو حلاق مهذار بادي الطمع ، وقد أوجز تيرنر طمعه بعبارته الاتية : ((لم افز من ابي بأي شكل من اشكال العطف او المحبة ، ولا اذكر من عواطفه نحوي الا حثه لي على توفير نصف بنس من مصروفي اليومي)) .ولكن هذا الاب اهتم كثيرا بتعليم ابنه وأرسله الى المدرسين يلقنونه اصول الفن ، حالما ادرك ان مواهب ابنه يمكن ان تدر عليه مبالغ محترمة من المال . اما تيرنر فقد عامل اباه معاملة طيبة ، وحين بقي الشيخ بدون عمل ، استأجر له مسكنا في الريف وترك له فيه حرية التصرف والادارة ، فكان الوالد يعدّ لابنه قماش الرسم ويعنى بشؤون البيت ويفلح الحديقة . ويذهب الى لندن صباح كل يوم في عربة احد الفلاحين ليوفر اجرة السفر مكتفيا بمنح صاحب العربة قدحا من الخمر .

لقد تلقى تيرنر تعليما مدرسيا محدودا ، ولكنه استفاد منه أقصى استفادة . ونشر الناقد ارمسترونغ ـ وهو افضل من درس تيرنر ـ رسائل كتبها الرسام في شبابه الاول ، عبر فيها عن آرائه بلغة انجليزية سليمة وواضحة ، وتكاد تخلو من الغلطات الاملائية واللغوية ، كذلك اثبت ان تيرنر كان على مستوى ثقافي عال ، وعلى الرغم من قلة مطالعته بسبب انهماكه الشديد في ممارسة فنه ، الا انه كان شأن جميع المثقفين الانجليز يحمل تقديسا عميقا للتراث الكلاسيكي . وعلى هذا فقد قرأ لاغلب الكتاب والشعراء القدامى مترجمين الى الانجليزية . وظهر تأثيرهم عليه في مواضيع رسومه ، وفي طابع الجلال الذي يطغى على صوره . واذ غبرت الايام وانقضت السنون ضعف بيانه اللغوي بينما انطلقت ريشته تفصح بمهارة فذّة عن كل افكاره ومشاعره حتى اصيب بالعي وكاد ان ينسى لغة اللسان . وفي هذا تفسير حقيقي لما عرف عنه من ايثار الصمت في المجتمعات والمجالس .

وكان شغفه بالطبيعة هائلا، وعلمه بمظاهرها ومشاهدها موسوعيا، وهذه المعرفة بالطبيعة استندت لديه على الفضول العلمي والتأمل الشعري في آن واحد . وكان يكسف في الطبيعة يوميا شيئا جديدا يثير عنده اعظم الاهتمام ، فيشتد عزمه ، وتتضاعف لهفته على مواصلة الغدم في بحوثه واكتشافاته . يروي احد معارفه انه كان ذات يوم يمشي على ضفاف نهر التيمس فوقع بصره على رجل نحيل دقيق الكفين والقدمين ، يرتدي معطفا بنيا طويلا و(صدرية) مخططه ، وقميصا مبهرجا فضفاضا ، جالسا القرفصاء على الرمل وهو يطيل التحديق في الماء وكأنه قد غفل عن العالم وما فيه . ومضت نصف ساعه وهو على تلك الهيئه لا يبدي حراكا . وحين نهض اخيرا عرفه صديقه ، لقد كان تيرنر !! ولما سأله عن سر تأمله الغريب في الماء أجاب ببساطة: كنت أراقب التيار لاعرف فعل الموج وتأثيرها على رمال الشاطيء .

هذه الرغبه الملحة لتفهم أسرار الطبيعة ولدت في نفس تيرنر من ايام طفولته . ذلك ان نهر التيمس كان يجري قريبا من محل عمل ابيه . فكان يلجأ الى هذا النهر دائما. وهناك يلبث الساعات الطوال ملاحظا المدينة بمخازنها التجاريه التي لا يحصى لها عدد ، ومصانعها الضخمة التي تنفث الدخان الاسود ، وذلك الضباب المعتم الذي يخنق انفاس الناس ، وجسور لندن التي تعبر تحتها السفن ، كان يرقب العمال في حركتهم الدائبة ، وبائعي الاسماك وقوارب الصيد ، وبين الحين والاخر ينسل الى البحر ليركب السفن الشراعية ويعودها بنفسه ممسكا بالسارية والحبال كما يفعل اي بحار . في تلك الايام البعيدة لم يفكر بالجمال والقبح ، وانما كان يدرس ويتأمل ويلاحظ، ليفهم كيف تؤثر الاشياء في نفس الانسان ، وبهذا كان يتعلم الفن . وفي اول الامر شرع يحفر على الصحاف والاواني ويلون رسوما عليها ليبيعها للراغبين بالثمن زهيده . وبعد العاشرة انصرف الى المدرسين يلقنونه فنهم غير انه لم يجد لديهم ما يريده . وفي الاكاديمية الملكيه صار يرسم النماذج العاريه بصورة مغته . غير ان مواهبه ـ من البدايه ـ بدت في تصوير المناظر الطبيعيه . ولم يزده مر الزمان الا براعه في هذا الميدان واعمالا تاما لهيكل الانسان . وعلى ذلك هجر رسم الاشخاص الى الابد ، تماما كما اهمل اللغة والكلام .

ومنذ البداية احب الاصباغ المائيه وآثرها اذ رآها اكثر شفافية وأشد صفاء من غيرها . ويبدو ان هذه الاصباغ من مبتدعات الفنانين الانجليز . وقد وفق تيرنر الى تطوير امكانياتها اعظم توفيق . ولو حاولنا المقارنه بين رسومه المائيه ومجموعة الرسوم المائيه لجميع الفنانين الاخرين ، لبدت رسومهم ناقصه بل مجرد تخطيطات اوليه لم تتحول ابدا الى لوحات متكاملة . ونورد على سبيل المثال في هذا المجال تخطيطات كونستابل وسيزان بالالوان المائية ، فقد كانت ـ على مهارتهما في التلوين ـ مجرد تخطيطات . اما تيرنر فقد انتج بالالوان المائية اعمالا فنية كاملة رائعة الجمال . وكان اساذه الذي لقنه اصول استعمالها هو غيرين Girtin وهو رسام مصدور ومدمن على الشراب ، صرعته العلة قبل بلوغ الثلاثين غير انه مع ذلك كان فنانا كبيرا ، وكثيرا ما ذكره تيرنر بعطف يشوبه التهكم قائلا : ((لو عاش غيرتين لمت جوعا ، وكنت مستعدا ان افقد احد اصابعي مقابل التوصل الى رسم صورة واحدة من صوره)) .

ومنذ الخامسة عشرة من عمره بدأ يشغل اوقاته في تزيين الجدران داخل قصور الاغنياء من اهل الريف ، وقضى العشر سنوات التي اعقبتها في العمل ذاته اذ كان يعتبره تدريبا مفيدا . وفي الوقت نفسه كان يقوم برحلاته المشهورة على قدميه منفردا حينا ومرافقا لصديقه غيرتين احيانا . وفي تلك الجولات كان يملأ اوراقه بالاشكال والخطوط وكتل الالوان ، وحين يجوع يسحب من طرف عصاه منديلا

ملفوفا ، ويبسطه على الارض ثم تبدأ الوليمة الفاخرة ! لم يكن يعترف بالمثبطات ولا العوائق ، فهو ياكل اي طعام متيسر ، ويرقد في اي مكان قريب ، ويعمل في كل احوال الجو ، ويرضى بمختلف الظروف . كان الامر الوحيد الذي يثير سخطه تطفل الناس عليه اثناء العمل ولذلك فقد ابتدع وسيلة غريبة يحمي بها نفسه منهم ، فكان اذا عثر على المنظر المطلوب يتلفت حوله باحثا عن اقرب وهدة او حفرة ! فان وجدها هرع اليها ، وجلس عندها يرسم، وحال رؤيته شبح انسان قادم ، يترك عمله ويختفي وكان الارض قد ابتلعته ! وكان يقضي في كل دراسة من دراساته الفنية للمواضيع المختلفة ساعات طوالا ، وحين ترتوي روحه من مشهد الاكمام المتفتحة او الحقول الوسنانة او الغمام المتوشح بأشعة الشمس ، يطوي ورقة الرسم طيتين ويدسها في جيبه العريض ليعود اليها في وقت اخر .

في ختام القرن الثامن عشر نرى تيرنر ملازما لصديقيه : الرسام غيرتين ، والدكتور مونرو ، طبيب الملك الذي يتعشق الفنون وقد وجد في قصر الطبيب الفنان لوحات الاساتذة القدامى فبدأ ينقل عنها مصورات يعدها للبيع ، كذلك وجد في مناظراته المستمرة معه حول فن الرسام : كلود Claude سلية كبرى ، ومتعة عظيمة ، وفي هذه الفترة انتخب تيرنر عضوا في الاكاديميه الملكية .

ويعتبر عام ١٨٠٠ بداية عهد البحث عن الهدف والاسلوب ، وما كاد هذا العهد ينتهي حتى كان الفنان قد درس كل ملامح الارض والسماء والبحر ، وتفهم العمليات الطبيعية للكون ، مفرغا اياها في قالب ديني اسطوري . لقد كانت هذه الفترة فترة انتاج : خصب ومتنوع . ولما كان يسعى الى السيطرة التامة على ادواته الفنية ليديرها كيف شاء ، فانه اضطر ، مثل اي فنان غيره ، الى مراجعة انتاج الفنانين القدامى . ولقد لفظ اعداؤه في موضوع سابقه مع كبار الفنانين وميله الى منافستهم في المكانة الفنية التي حصلوا عليها ، فاما سعيه الى مقارعة بيتيان ورامبرانت ، فانه لم يحصد منه غير الخيبة والفشل . واما محاولته للتفوق على فانديفيلد Vandevelde الهولندي ، فقد انصرف هو عنها مختارا ، اذ وجد نفسه احسن تفهما وادراكا لاسرار الطبيعة منه . غير اننا اذا نشدنا الحقيقة وحدها وجب ان ننزه تيرنر من رذيلة الحسد . قال ذات مرة مخاطبا رسكن Kuskin الذي كان يهاجم بعض الفنانين : «سيدي العزيز ، لو قدر لك ان تفهم معاناة الرسام في عمل اية صورة مهما قل شأنها ، لما هان عليك ان تتحدث عن الرسامين بكل هذه القسوة». ثم ان اعجابه الشديد بفن غينسبره Gainsborough وولسن Wilson جعله يكيل الثناء لهما مع ما عرف عنه من العي والحصر . على ان فن تيرنر خال : من الكآبة التي تميز صور غينسبره ، والضعف الذي يقلل من قيمة صور ولسن ، لان لوحات تيرنر ذات طابع مثير ، وعظيم الجلال في الوقت ذاته ، اذ تمثل الحياة والطبيعة في مواجهتهما للاقدار . غير ان تيرنر كان يهفو الى بلوغ مرتبة كلود Claude الذي عرف ـ احسن من اي رسام اخر ـ كيف ينقل صورة الشمس والسماء الى الورق .

وبين ١٨٠٠ ـ ١٨٢٠ انتج فرائده المشهورة masterpieces وفي اول الامر كان يطفى على لوحاته الرائعة اتجاهان : الاول واقعي ناشيء عن دراساته الطويلة للطبيعة ، والثاني مغرق في الخيال والشطحات الغيبية متأثرا ببوسان Poussin وكلود . على ان النزعتين سرعان ما التحمتا واتحدتا في انتاجه ، فلم يعد بالامكان التفريق بين النوعين . وبعد عودته من ايطاليا انزاحت العتمة من الوانه فتلألأت وازدهت بصفاء وشفافية . ثم خطا خطوة اخرى الى الامام حين ظفر بصلادة البناء الذي يميز الاشكال في الطبيعة ، وبعد ذلك بست سنوات ظهر تطور جديد ، اذ وفق الى اعداد التصاميم بأشد عناية ، ثم التأليف بين تفصيلات الموضوع جامعا بين البحر والسفن والبر والسماء ، في جو متألق شفاف وموه بطراوة الوان الطيف الشمسي .

ولكن حياته الشخصية في هذا العهد لم تكن موفقة على النسق ذاته . فلقد ازدادت عزلته رغم رغبته الحادة في الاندماج بالجماعة . ولو توخينا الحقيقة فان هذا الرجل كان انسانا اجتماعيا يحب المرح ويتمنى الالتصاق بالمجتمع غير ان اصله ومنشأه حالا دون ذلك . كان يتلهف للفوز باحترام الناس وصداقتهم غير انه لم يعرف السبيل الى ذلك . ولم يعلم انسان بمدى استماعه بالاجتماعات التي كانت تعقد على مائدة الاكاديمية ـ رغم جهله المطبق بآداب المائدة . ولم يشعر احد بالزهو الذي انتابه حين دعي الى احتلال كرسي رئيس الاكاديمية عند نفيبه . لكن انهماكه الشديد في اعماله الفنية ادى الى مزيد من الانفراد ، ثم آل الامر به الى الانطواء على الذات ، وهكذا انطفأت ميوله الاجتماعية واحدة بعد الاخرى .وصحيح ان تيرنر كان حاد الطبع بل شرسا احيانا ، الا انه مع ذلك كان طيب القلب كريم النفس يعين المعوزين من الفنانين سرا حتى لو ادى ذلك الى خسارة شخصية . ومما زاد الامر سوءا انه كان رجلا عييا لا يحسن الحديث ، فحين عين استاذا لعلم المنظور Perspective حرص كثير من الناس على الحضور الى القاعة لا للاستماع الى محاضراته ، وانما للتمتع بوسائل الايضاح البديعة التي تخطها ريشته ! ولم يكن الامر بافضل من ذلك بالنسبة لاسلوب كتابته ، فحين الف قطعة من الشعر المنثور لشرح صور احد معارضه ، وصف النقاد تلك القصيدة بانها أثقل ما كتبه فنان على مدى العصور !

بدأ تيرنر يحيا مع فتاة في السادسة عشرة من العمر منذ سنة ١٨٠٠ وكانت مدبرة منزله . وظلت معه حتى نهاية حياته وفي عام ١٨٠٢ رحل الى القارة الاوروبية ثم عاد مثقلا بمئات الرسوم التي تمثل فلاحين سويسريين ومناظر للالب ورافعات فرنسيات وصيادي سمك، وبنايات ، ومواضيع جامدة ، Still - Life وكان يركب في رحلاته سفن نقل الفحم ! ويتحمل كل حالات الجو ليدرسه عن كثب . وفي احدى رحلاته في بحر الشمال على ظهر سفينة صيد ، اضطر الى ربط نفسه بالحبال الى السارية ، عند هياج العاصفة ، مدة اربع ساعات ليرقب العناصر في غضبتها ـ على حد تعبيره ـ .

لقد كانت الاعوام الاولى من القرن التاسع عشر اسعد سني عمره. ففي تلك الفترة كان يمضي ايامه ضيفا معززا في قصر والترفوك ،احد اغنياء يوركشاير ، وهو رجل يهوى الفنون ، ويبدو انه الصديق الوحيد الذي فهمه واحبه . وفي سنة ١٨١٢ ابتاع تيرنر لنفسه منزلين متلاصقين في شارع الملكة آن ، ليعيش فيهما ويعرض رسومه في قاعة احدهما دائما .

ويتساءل كثير من الناس عن علاقة تيرنر بالخادم التي كانت تساكنه . وعما اذا كان هذا الرجل قد احب شيئا او احدا باستثناء الطبيعة والفن ! غير انه قد عرف بين اصحابه بشدة الحيوية وبغرابة الاطوار . وقد ولد له من تلك المرأة اربعة اطفال اصحاء فلم يلتفت اليهم ، ولم يعترف بابوته لهم .

ثم تقضت الايام وتصرمت السنون ، واطلت بوادر الشيخوخة ، واذا بالفنان الذي سحقته وطأة الكدح والعمل ينغمس في الشراب باحثا عن شيء لا يعرف له كنها ، وكأنه قد أصيب بمس ! وشيئا فشيئا وهنت الشخصية ، وذابت المحاسن ، وطفت طباع الفطرة الخشنة على مظهر الشباب وحلية الذكاء . وبدا الرجل الجبار يفقد ثقته بنفسه، فشرع يتغيب بين الحين والحين عن منزله مختفيا عن الانظار .. في الاوحال ..

بعد عام ١٨٣٥ يمسي تيرنر شيخا محطما مستوحشا من البشر يدفن نفسه بين الالوان والصور . فلقد مات ابوه ، وتوفي صديقاه: مونرو وفوك . وقتل هو نفسه بالافراط الفكري والعمل الجسدي

وتفاءلت قدرته على العمل فكان يضطر الى الخلود الى الراحة والانصراف عن الرسم بين الفينة والفينة .

غير ان ذلك كله لم يصرفه عن مسؤولياته الفنية ، ففي هذا العهد نفسه كان اهتمامه مركزا ومنصبا على النور ، يدرس انعكاساته وتأثيراته في الاشكال ، وظل يبحث ويتفحص ويتأمل بطريقته الشمولية الغريبه . وقرأ (تأملات غوتيه) في الالوان ، ولكنه خاب في الكتاب ولم يجد فيه مبتغاه . كذلك اهتم بالفن الفونوغرافي الذي ظهر في تلك الايام ودرسه بدقة ، ثم أعلن رفضه له لانه يسرق الطبيعة ولا يصورها ـ على حد تعبيره .

وبعد عودته من رحلة اخرى الى ايطاليا ، بدأت لديه فترة التعبير الحر بحسب وصف النقاد . ومن المواضيع التي صممها في هذا العهد : (شمس فينسيا) و(سفينة العبيد) و (مدخل بيتورث)و (المطر والبخار والسرعة) وكانت هذه اكمل نماذج للضياء المتكسرالشفاف الذي سلب الباب الرسامين الفرنسيين بعد ثلاثين عاما لا سيما بيسارو Pissarro و مونيه Monet

لقد كانت تلك آخر فرائد تيرنر ، وبعدها طفت العتمة على وهج الوانه . وبدأ منذ سنة ١٨٤٥ يقطع رحلة الفناء اذ صارت رسومه تفضح اختلال العقل ونبلد الشعور . وخمل ذكره ، ونسيه الناس قبل ان يموت .

لقد تحول منزله في تلك الاثناء الى طلل دارس ! كان المطر ينفذ الى الداخل ، والصور قد تعفنت بفعل الرطوبة ، وقطع الاثاث المبعثرة في كل انحاء المسكن تشير الى غياب اهله ! لقد تراكمت على الارض ثلاثون الف صورة وتخطيط ، لتعيث فيها الجرذان فسادا ، اذ لم يكن مسموحا للمرأة التي تدير البيت ان تلمس شيئا منها !

وفي ذات يوم عام ١٨٥١ اختفى الرسام دون ان يترك عنوانا ، ولما بحثت الخادم ونقبت ، وتتبعت آثاره وجدته مقيما مع امرأة عليلة تدعى مسز بوث في منزل يقوم على ضفاف النهر ! وفي هذا المكان قدر للمنبالة ان تنطفىء وتخمد . وقضى تيرنر ...

* * *

لقد اثيرت حول تيرنر وفنه معركة ادبية حامية استمرت سنين طوالا، ولم يكن المسؤول عن نشوبها غير اعداء الكاتب الانجليزي الكبير جون رسكن J. Kuskin .ومن الممكن القول ان اي رسام ـ قبل تيرنر ـ لم يتح له ان يفوز بثناء اديب له ثقافة رسكن، وجزالة اسلوبه ، وعمق تفهمه للفن . ولكي يفض اعداء رسكن من شأنه ، ويتهجموا على آرائه الفنية ، وينتقصوا من فصاحته ، قر رأيهم على ان ينزلوا من قدر الفنان الذي يعجب به اكثر من غيره، وهو صاحب هذه الترجمة : ويليام تيرنر !

على ان عبقرية تيرنر لا يمكن ان تكون موضع تساؤل او شك، فهو يملك الاداة الفنية الكاملة : باصرة نفاذة حادة ، وبصيرةمنفتحة مرهفة ، وتمكن من التكنيك ، وحذق عظيم في استعمال المواد ، والى جانب ذلك كله مقدرة رائعة على التعبير بالخطوط والالوان والظلال على كل ما يجيش في نفسه ويتراءى له في الخيال .

كل ما في الطبيعة كان يشغل باله ويحرك اوتار قلبه ، فمن حصباء الشاطىء الى المياه المترقرقة الى الجزر الوسنى الى الغمام الرمادي ، ومن الريف الهادىء الى العود الطري الى الورق النضر الى الزهر الناعس . وكان النور مصدر قلقه الاشد وموضوع افتتانه الاعمق ، فالشمس عنده منبع الحياة وسر الخلق . على انه لم يكن تاجرا يجمع الحقائق الجافة او عينات التربة والهواء ثم يعرضها على الورق للاعلان والبيع ، بل كان شاعرا يتفاعل مع الحياة التي يعيشها وينفعل بمظاهر الطبيعة الساحرة . وكانت انعكاسات الاشياء في نفسه كونية ـ اذا صح التعبير ـ وانا اتساءل فيما اذا كان شيكسبير نفسه قد بلغ هذا المستوى من رهافة الحس وعمق التأثر بالطبيعه ، اذ كان تيرنر شديد الشغف بمراقبة احوال الطبيعة وتقلباتها ، وملاحظة العلاقات التي تشد الاشياء الى بعضها وصلة ذلك كله بالانسان . وحتى في اسرع التخطيطات التي صممها ، لم يكن مجرد عالم يصف الخصائص الظاهرية للاشياء ، بل كانت اشكاله تتطور بناء على قوانينها الخلاقة الذاتية . ولما كان هذا الفنان مخلصا لعصره ، فانه جمع في صوره كل الاتجاهات الشعرية التي اكتسحت عالم الفن آنذاك . وكان يسعى الى مقارنة كرم الطبيعة وسخائها بالنشاط التخريبي للانسان . عارضا ذلك كله في الف هيئة من الفخامة وفي مسحة وديعة من الغموض والجلال . اما عن المضمون والمحتوى فان تيرنر لم يدخر وسعا في تقديم مفاهيمه ومدركاته وعرض انفعالاته، على شكل لوحات كبيرة ومحمورات جميله وتخطيطات مدهشة ، افصح فيها عن آلاف الافكار التي كان يتلهف الى التصريح بها . اما عيوبه فهي تعيد الى الذاكرة عيوب شيكسبير : انها الخصوبةالابداعية والوفرة الانتاجية ! !

ناء تيرنر بالعبء الذي ارهق ارواح الفنانين على مدى العصور اعني موقف الانسان حيال قوانين الطبيعة وجبروت الاقدار . لقد كتب له ان يعيش في الحضيض ويموت في الوحل . تلك كانت مأساته، ومع ذلك فقد انتصر على قدره ، وتفوق حتىعلى ذاته ! اذ بلغ في عالم الفن القمم التي عجز عن بلوغها ايما رسام غيره ، شغف بالطبيعة وفتنته محاسنها فانصرف اليها ، وهجر الناس من اجلها ثم عرض لوحاته امام الاعين دون ان تعجز ريشته المطواعة عن تصوير صلابة التربة او تركيب البحر او تكوين السهول او بنيان الموج او هبوب العاصفة ، لقد اظهر كل ذلك في بيان انساني شديد المتانة ، ولم يحاول ابدا التهرب باللجوء الى الرمزاو الايحاء اوالحيل اللونية ! ثم وجدنا النور في لوحاته كلها ينطلق من مصدر واحد متحركا حركة تراجيدية رائعة هي حركة الطبيعة ذاتها .

في آثار تيرنر لا نجد راحة ولا نتلمس فرحا . وانما هناكالدراما والصراع ثم سكينة الموت والنهاية . وهو يصور مظاهر التحلل وعوامل الفناء بابهى حلة وافخم جلال ، تماما مثل الموت في عالم الواقع وثمة طابع خاص يميز جميع رسومه ذلك هو طابع الوحشة والشعور بالوحدة فهو حين يرسم منظر العاصفة ويصور هياج البحر يضع قصرا مهدما عتيقا في زاوية قصية من اللوحة لتكون المقارنة على انم ما يكون من الصفاء والوضوح .

وتيرنر هو مكتشف الشمس بين الرسامين ! ففي رسومه تحولت تلول يوركشاير الى جبال مشتعلة باللهب واضحى نهر التيمس المضبب نهرا دافئا متلألئا . بل ان كل صوره انما تعبر عن جلال النور ورونق الشمس . كيف توصل الى تلك النتيجة ؟ انه يضع شعاعا ابيض ازاء ظل ارجواني ، وهو يطلي حطام السفينة الغرقى بالدم والنار. وحين يرسم تخريب الاعصار ،يصور الاشياء ذائبة في حزم مذهبة بالصفرة والحمرة والزمرد .

غير ان هذا الفنان ، حتى حين خارت قواه ، وانحطت مداركه، لم ينس ابدا انه يرسم للناس : لعيونهم ولاخيلتهم ولافئدتهم ولعقولهم . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع ان نعده من الرسامين الانطباعيين ، ولا من الاكاديميين . وافضل ما توصف به آثاره انها محاولات العبقرية للافصاح برسائل مادية وانسانية عن المطلق واللانهائي ، عن اسرار الكون ، وتراجيديا الحياة ، والدراما الانسانية الكبرى .

ولعمري ان بلوغ هذه الغاية النبيلة مطلب عسير ، لا يوفق اليه الا اصحاب المواهب الخارقة .

بغداد

احسان الملائكة